مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 377 - 389 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الهوية بين التشكيل والتفكك" فضل الليل على النهار لياسمينة خضرة أنموذجا"

Identity in between Formation and disintegration in Yasmina Khadra's "Preference of Night over Day"

حصباية محمد[1]*، الحاج بنيرد[2]

Hasbaia Mohamed[1], Elhadj Bennird [2]

جامعة مولود معمري تيزي وزو(الجزائر)

مخبر تحليل الخطاب

University Of Mouloud Maamri Tizi Ouzzou Algeria

hasbaiamohamed@gmail.com[1] / hbennaired@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال:2020/11/09	تاريخ القبول:2021/06/25	تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص البحث

تعالج هذه الورقة البحثية إلى معرفة تجليات الهوية من خلال استنطاق الأدوات السردية، باعتبارها ذات قدرة على استبطان دلالات وأنساق ثقافيّة دواخل الخطابات السّردية، وابراز جمالياتها الفنيّة دون تصريح. ولهذا فهي بحاجة إلى الكشف عن الحيل الخطابيّة المستخدمة لتمرير مدلولاتها المستخدمة. وذلك من خلال إبراز قضية الأنا والآخر والأيدولوجيات المختلفة التي تكون مضمرة داخل العمل الإبداعي، والتي لم يصرح بها الكاتب، سواء كان ذلك شعوريا أو لا شعوريا. كما تعمد إلى فك شفرة الكتابة للوصول إلى عمق النص وجوهره، فالكتابة ليست فعلا حياديا، إذ كثيرا ما تسعى إلى التأثير على الفكر وتثبيت الكثير من المفاهيم وسط المجتمعات.

الكلمات المفتاح: هوية؛ أنا؛ آخر؛ جدلية؛ ثقافة.

Abstract :

The present research paper uncovers the identical aspects through scrutinizing the narrative mechanisms that are thought to be involving cultural significations throughout the narrative discourses and making their artistic enthrallments prominent without explicitness. Thus , the paper is in a dire need for discovering the discourse tricks applied in conveying their significances, through showing the ego and the other together with the different ideologies which are embedded within the creative work and that have not also been declared by the author , intentionally or unintentionally. Furthermore, the writer sought to decode the writing code to reach the depth of the essence of the text, as writing is not merely a neutral behaviour and most of the time aims at affecting thought and implanting a variety of concepts amongst societies.

* الدراجي عباسي darradji.abassi@ummto.dz

Keywords: Identity, ego, other , dialectic , culture.

مقدمة:

مهما تعددت مدارات الكتابة السردية في العالم العربي وتنوعت ثيماتها، فلا تزال الرواية العربية عموما والجزائرية خصوصا، لحاجة معرفية، في ظل تحديات العولمة بحكم أنّها مصدر قلق شعوب العالم الثالث، التي تعرضت إلى السّلب والاغتراب والتّبعيّة، فهي أكثر حساسيّة بإثبات هويتها، تستشعر دائما رقابة رموز هويتها، بوصف هاته الأخيرة المعنى المتجدد للذات في الوجود المكاني «القطري» والزمني «الحداثي»، وإذا كان سؤال الهوية، الذي يراه الناقد جابر عصفور، بحسب ما ذكر عنه في تقديم كتابه الجديد «الهوية الثقافية والنقد الأدبي» من قبل خيري دومة مشروعا طالما أنه بعيد عن التخيل الأيديولوجي لأنه أمر مضلل للرؤية التي تقدمها الكتابة المتشبعة بالمفهوم الأدبي، قد عرف تحولا تاريخيا في نطاقات السرد تداعيا للمتغيرات في الوعي والواقع العالمي والمحلي، فإن رواية «فضل الليل على النهار» للروائي الجزائري ياسمينة خضرة يرفض مبارحة عتمات الأيديولوجية الوطنية كمنطلق أول لمساءلته عن الهوية المتشظية في تاريخ العلائق الماضي، بحسبان ذلك شرطا لفهم الحاضر والانطلاق نحو المستقبل. تضع الرواية الجزائرية المعاصرة اليوم أقدامها على عتبة التميز، والتفرد على الصعيد الجمالي والمعرفي، تهدف من خلال بنياتها ولغتها المكثفة، وأساليب الإيحاء والرمز، مستخدمة كل الفنيات السردية، والصور الفنية المتنوعة والمختلفة لتعبر عن وعي الذات ورمزها وعلاقتها بالأسطورة وصراعها الدائم مع هاجس الأحلام، وارتدادها إلى ذاكرة التاريخ. فما هي الحدود الجمالية لتعدد صور وتشكلات الذات في الرواية الجزائرية المعاصرة؟ وماهي تجلّيات الهوية في الخطاب الروائي المعاصر؟.

مساءلة الهوية عند ياسمينة خضرة:

المتأمل للخطاب الروائي الجزائري يتضح له ذلك الزخم الواسع والفضفاض في القضايا التي عالجها هذا الخطاب عبر مراحل مختلفة من تاريخ تشكيله، ومن أبرز هذه القضايا تيمة الهوية التي" يحيل مفهومها حسب الفيلسوف الفرنسي بول ريكور على معنيين؛ الأول يحيل على التطابق أو العينية (memeté)هي الهوية التي لا تتغير مع الزمن، وتقترب من مفهوم الجوهر عند ارسطو، وميزتها هي الديمومة، والثاني بمعنى الذاتية (identité ipse) وتعني أن يشير المرء إلى نفسه. ولا تعني وجود نواة لا تتغير في الشخص. يقول بول ريكور: إن الهوية بمعنى لا تحوي ضمنا أي تأكيد يخص وجود نواة لا

تتغير تحويها الشخصية"[1] أصبح من الواجب أن نتوقف عن النظر إلى الهوية في تفريعاتها البسيطة فكان لزاما لمعالجة هذه المسألة الحساسة –الهوية–وما تنطوي عليه من أفكار وايديولوجيات تحليل أحد أهم الأعمال الروائية العالمية، ودراستها في سياقها الثقافي والاجتماعي والسياسي والتاريخي، باعتبارها نصا متخيلا يزخر بالكثير من الأنساق الثقافية المختلفة والمضمرة. فكان استجواب هذا النص واستنطاقه ومن ثم استخراج النص الموازي أو المسكوت عنه واقتناص الرسائل المشفرة التي يموج بها من خلال أسماء الشخصيات وحوارتها والأمكنة وتسمياتها , إذا أدركنا العلاقة الخصوصية بين هذا الكاتب الفرنسي الجنسية بالجزائر المستعمرة آنذاك وحساسيتها، إذ طالما وجه شخصياته وفق الفكر الكولونيالي الذي جسد الصراع بين الأنا والآخر من خلال شعب يتوق إلى الحرية وقوى استعمارية حجتها نشر الثقافة والحضارة وسط ما تعتبره شعبا بدائيا. ومن النتائج التي توصلت إليها أن ياسمينة خضرة يعد من الكتاب الذين ساهموا في تكريس الآخر في كتاباتهم الروائية، فلم يكن اختيار خضرة للمدن الجزائرية كأماكن وقعت فيها أحداث الرواية بريئا بل كان يحمل لا شعورا كولونياليا، فهو يريد بذلك أن يجعل منها مدنا فرنسية بحتة، فهو يرى بأن الجزائر عمها الرخاء بعدما أصبحت جزءا من الإمبراطورية الفرنسية." الهوية مسعى وسطي ينطلق للإفادة من كل تجربة إنسانية ناجحة ليعيد صياغتها ثم إدراجها في كينونته الخاصة، دون أن يكون ذلك التلاقح، والتبادل مع الآخر على حساب السمات والرموز الأساسية لهوية الأنا المميزة. يشير إلى ذلك الأنثروبولوجي الشهير ليفي شتراوس بالقول: إن كل ثقافة تتطور بفضل تبادلاتها مع ثقافات أخرى، لكن يجب أن تصنع كل منها مقاومة ما، وإلا فسرعان ما ستفقد كل شيء خاص بها يمكن مبادلته. ثم يكتف شتراوس هذه الفكرة بأن: لكل من غياب الاتصال والإفراط فيه خطره، وفي موقع آخر يؤكد شتراوس بحسه الأنثروبولوجي أن وجود نموذج موديل ثقافي وحيد سيكون خطرا عظيما على الجنس الإنساني، وذلك أن الحضارة الإنسانية لن تكون شيئا آخر عدا ائتلاف الثقافات على الصعيد العالمي مع احتفاظ كل ثقافة منها بمظاهر تفردها"[2]، من الطبيعي القول أن الثقافة لا تنمو وتتطور إلا في احترام كل الخصوصيات والتنوعات هذا الاحترام المستند إلى إطار قانوني، فالخصوصية تتحرك في فضاء الوحدة؛ كما أن الوحدة لا معنى لها على الصعيد الإنساني والواقعي إلا بفسح المجال لكل الخصوصيات لكي تعبر عن ذاتها اجتماعيا، ثقافيا، سياسيا. لذلك فالانفتاح الثقافي هو بوابة الولوج في مختلف المجالات والمستويات والحوار الثقافي والتواصل الفكري بين مختلف المكونات والتغيرات لا يهدد الاستقرار الاجتماعي وإنما يثريه ويزيد صلابة وتماسكا. ولعل التواصل الفكري واللساني كان حيزا مليء بالخصوصيات والفوارق بين

الذوات والغيري في" أن يحدد أي مجتمع الفوارق بين أناه وبين الآخر هو أمر لا بد منه، ذلك أن تكون هوية الأنا لا تتم إلا بتحديد المائز بينها وبين هوية الأخر. ومن أهم هذه الفوارق هو فارق اللغة، حيث أن اللغة لها علاقة وطيدة بطبيعة الحياة التي يعيشها أصحاب هذه اللغة، وهي عاكس لطريقة تفكير أصحابها وطريقة رؤيتهم للعالم. وأن تكون للآخر لغة مختلفة عن لغة الأنا فمعنى ذلك أن له حياة مختلفة وله طريقة في التفكير مختلفة ورؤية للعالم مختلفة عن حياة الأنا وطريقة تفكيرها ورؤيتها للعالم. فإذا عرفنا مكانة اللغة العربية في الثقافة العربية وهو ما لا يحتاج للتعريف عرفنا أهمية هذا الفارق في الثقافة العربية لتكوين هوية الأنا في هذه الثقافة"[3]، فإذا كانت اللغة هي الوعاء الفكري الذي يتفاعل مع الأشياء ويقف منها أو معها مواقف محددة، فإن الكثير من الكتاب يبررون كتابتهم بلغة الآخر بقولهم إن جميع البلدان تحولت إلى مجتمعات ذات طابع أممي، حتى إن (إنيتا ديساي) الهندية التي تكتب بالإنجليزية نجدها وقد أطلقت فكرة مثيرة للجدل، مستفيدة من التعدد اللغوي الهائل في بلادها، فتجعل من الإنجليزية المحلية لغة أخرى تضاف إلى اللغات الهندية، كذلك يرى الطاهر بن جلون أن الانفتاح على الثقافة الفرنسية لا يعني فقداناً للهوية، وبدوره يرى الإسباني خوان غويتسولو أن الكتاب المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية، يعملون على صعيد المعنى بمعزل عن روح اللغة الفرنسية التي يكتبون بها

في المقابل نرى من يخالف هذا المنهج، ويرى أن مناقشة كتابة ما بعد الاستعمار هي بشكل عام مناقشة للعملية التي يتم بها تحريف اللغة بما لها من قوة، وتحريف الكتابة بما تحتويه من دلالة على السلطة، وإبعادها عن الثقافة الأوروبية المهيمنة، وقد يكون المطلوب أحيانا إلغاء مكانة الإنجليزية أو التنكر لها، وهو ما ينطوي على رفض لسيطرة القوة الإمبريالية، ولجمالياتها ومعاييرها الموهومة، فيما يمكن أن يطلق عليه (عملية الاستحواذ) وهي العملية التي يتم بها أخذ اللغة وتهيئتها لكي تحمل حمولة التجربة الثقافية الخاصة لشخص ما، وبالتالي نكون أمام لحظة حيوية لنزع الطابع الاستعماري عن اللغة والكتابة الأجنبية[4]. هذا ونجد السارد يعبر بقوله" هل يتكلم الفرنسية ؟ بغير وضوح يقول جو بأن جدته الأولى فرنسية من منطقة الصافوا العليا، ولكنه لم يستخدم لغتنا أبدا لقد تعلّم بضعة كلمات وجمل منذ أن وصل إلى شمال إفريقيا.جو برتبة عريف. وقد شارك في كل الجبهات"[5]، إن الخطاب الذي استعمله ياسمينة خضرة في أن اللغة هي التي تصوغ هوية الجماعة، ففي تاريخ الإنسان البشري اللسان الواحد يضع فئة من الناس ضمن جماعة موحدة تملك هوية مستقلة.

الأنا والآخر ومحددات الهوية:

تختلف الهوية من شخص إلى آخر، وبالطبع يختلف تعريف الهوية عن تعريف المواطنة، حيث ترتبط الهوية أكثر بالانتماء الثقافي، الذي يميز المجتمعات عن بعضها في أنماط السلوك والعادات، وكذلك في الثقافة المادية والروحية الموجودة في المجتمع، ولكن يجب التنبيه إلى أنه رغم التسليم بالتمايز في الهويات في البلد الواحد، فإن ذلك لا يعني أي تمييز في حقوق المواطنة. وعلى الرغم من وجود هويات ثقافية مختلفة نتيجة للانتماءات المختلفة وحق كل من هذه الهويات في معرفة تاريخ وأصول المجموعة التي ينتمي إليها بالهوية وحقوقه في التعبير عنها والاحتفاظ بتراثها ولغتها في حالة وجودها، وعلى الرغم من كل ذلك فإن الجميع لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات كمواطنين ودون أي تميز أو تفرقة يقول ياسمينة خضرة" مر عمي على صورة ثانية تجمع ثلاثة رجال ببرانيس الأسياد، الوجوه وقورة بلحي معتنى بها، النظرات قوية كما لو أنها ستنبثق من الإطار أوقف أبي العربة – هذا الذي في الوسط هو أبي، أي جدّك . الآخران إخوته .على اليمين، سيدي عبّاس. هجر إلى سوريا ولم يعد أبدا .على اليسار عبد المؤمن، عالم متنوّر .كان يمكن أن يصبح حجر الزاوية للعلماء بسعة معارفه التي أطبقت الآفاق، ولكنه استجاب بسرعة إلى نداء المغريات .عاشر البورجوازية الأوربية، أهمل أراضيه وماشيته وبذّر أمواله في البيوت المستهترة .عُثر عليه ذات يوم مقتولا بطعنة خنجر في الظهر."[6]، تعددت خطابات الأنا والآخر في سرد ياسمينة خضرة وذلك بالقدرة على استحضار شخصياته بمشهدية متصادمة، تجسدت بحضور مكثف للتربية والثقافة لكل منهم في سياق اجتماعي مختلف، على الرغم من اجتماعها في مكان واحد وارتباطهم معا في علاقة ما، ويضيف قائلا" أنت صاحب الشأن. تصفّر ونكون عندك في اللحظة. إذن، أنتظركم جمعة الأسبوع المقبل. غمغم الحانوتي وهو يسوي عمامته الساقطة على وجهه: اتفقنا. أنا مسرور لأنك أنقذت موسمك. ردّ أبي وهو يبتعد: بل أنقذت روحي. قبل هذا، عليك أوّلا أن تملكها. ارتجف أبي عند عتبة الحانوت. بدا كما لو أنّه أدرك تلميحا مسموما في أقوال البقال. بعد أنْ حكّ مؤخرة رأسه، انزلق فوق العربة وعُدنا إلى الدار. تأثرت حساسيته بشكل لافت. انطفأت نظرته التي كانت مشعة هذا الصباح. يكون قد قرأ في ردّ الحانوتي نذير شؤم. هكذا الحال مع أبي؛ يكفي أن تناقض قوله كي تحضّره للأسوأ، أن تمدح حماسه للعمل كي تعرّضه لعين الحسود. كنت متأكدا أنّه بدأ يحسّ بالندم في قرارة نفسه، لأنه اندفع للابتهاج بانتصاره بيد أنّ لا شيء قد تحقّق بعد. أثناء طريق العودة، انكمش على نفسه مثل حنش ولم يتوقف عن سوط ردف البغلة؛ كانت حركاته مطبوعة بغضب مبهم"[7]، تبدو الأنا متشظية مرتبكة مشروخة فاقدة للرأي والرؤية السليمة لأن" العلاقة بين الأنا والآخرة تجسد ارتباك العلاقة

بين الأنا والآخر في إطار فكرة الهوية، إشكالية في العلاقة بينهما، ومن ثم فإن بدايات الاصطدام بالآخر كامنة على نحو موغل في فكرة الهوية، فصياغة لفظ الهوية بأساليب عدائية، واستخدام البعض للنازية والهتلرية كنقطة بداية لتضع نظرية العلاقة والمسؤولية نحو الآخر), فعدم فهم الآخر هو سبب الغموض والاختلافات العديد من المشاكل والتدافع نحو اهتمام الذات، والصراع والحرب غالبا ما يكون بسبب تلك الاختلافات وعدم التفاهم والقبول بالآخر شرط احترام الذات، قال تعالى في كتابه الكريم " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[سورة الحجرات، الآية، 13]، فالإسلام هنا عمليا يعترف بالآخر، ويقر له بشروط متساوية في الخلق ومنذ النشأة دون أن يحدد هوية الآخر، ونمط تفكيره وانتمائه فالاعتراف بالآخر ليس ترفا فكريا، فالاعتراف به والإقرار له بخصوصية لم يعد مبدئيا شأنا دينيا أو عقيديا فحسب، ولا نظرية منتزعة عن الحياة العملية للإنسان، بل حاجة ماسة في ظل الحضور الكثيف للأنا والآخر. وطرح ضرورة احترام هوية الآخر المختلف لا يشير إلى أن القبول والتسامح يمكن أن يزيل الصراعات بينهما، بالقبول التام للآخر لا يمكن تحقيقها"[8]، إن مستوى وعي الأنا بالآخر في هذا الجانب من الرواية وصل إلى ذروة الراديكالية باعتبار الآخر شرا مطلقا، لذا من الطبيعي أن تنادي بإلغائه قبل أن يلغيها، فهذا التأطير للآخر كما جسدته الرواية لم يكن ببعيد عن تمسك البعض عبر الشخصيات المعبرة عن أنا النقاء لتنقل هواجسها وعدائيتها اتجاه الآخر دون تدخل إلا في حدود إخضاعها لسياق السرد والأحداث" ويشكل الانتماء الديني جزءا من الهوية، ولكن هذا الانتماء الديني لا يعني أي تمايز بين من ينتمون إلى دين معين أو دين آخر حيث ينتمون جميعا للهوية الثقافية الموجودة في المجتمع الذي يعيشون فيه وهي التي قد تتشابه مع مجتمعات أو دول أخرى مجاورة لنفس البلد، ولكن هذه الانتماءات الدينية، أو الثقافية، لا يمكن أن تنعكس أو تؤثر في حقوق المواطنة التي يتمتعون بها بصرف النظر عن الاختلاف الديني"[9] التزم خطاب الديني عند ياسمينة خضرة بحضور مكثف ينم على ثقافته الدينية" في تلك الليلة وعندما رأيت النيران عند بعد، أدركت أن شقيا فقيرا يعود إلى الجحيم ولكنني لم أكن أتصور أن الأمر يتعلق بك –رد أبي إنها مشيئة الله"[10] ويواصل قائلا" في إفهام المسافرين الذين يعيونها بأن المظاهر فصلية حينما يتعلق الأمر بردم الأحكام التعسفية، وإحصاء طرقات الصليب التي كان من الواجب تحديها للوصول إلى القمر"[11]، هذا ونجد ياسمينة يستلهم من الثقافة الإسلامية وتحديدا من النص القرآني ما يتعارض مع قصة سيدنا يوسف" يتأمل المحصول الذي يعد أخيرا بفرحة أكيدة بعد سنوات عجاف من الجدب وقحولة الأرض"[12] ويضيف قائلا ما جرى

لسيدنا آدم مذكان في الجنة بحواره مع ابليس فقد ظلّ أدم عليه السلام تائها بسب المعصية التي أودت به للنزول إلى الأرض" آدم الذي طرد من الجنة لا يكون تائها مثلي"[13].

نحن أمام وضعية مفارقة ومضادة ومتباينة، تتموضع- يونس- الذات في وضعية أكبر يعطيها الاحساس بالتفوق وبالتالي تضع –ايميلي- الآخر في وضعية أقل(دونية)، نلاحظ – على طول النص – انشغال يونس بعالمه في باريس، وارتباطه الروحي ب (أيميلي الفرنسية)؛ وكأن الإنتاجية النصية للعلامات، والوظائف السردية، تؤكد ازدواجية الهوية لدى يونس، وبحثها المستمر عن كل من الأصالة المشبعة بروائح المكان في علاقته بالفتاة الفرنسية. يشكل الحب – إذا – في تداعيات النص، واستعاراته نموذجا يصل أصالة المكان، وثقافته، بالآخر العالمي في نطاق إنساني فريد يجمع بين الذاكرة، وتناقضات اللحظة الحضارية الراهنة التي تحمل دلالتي التسامح، وأطياف الحرب[14]، ودليل ذلك أن" لا يثار سؤال الهوية في شخصية تكتفي بعالمها، وتنكفئ فيه، ففكرة الهوية تنبثق حينما تتخطى الأسوار الثقافية للأنا، وتواجه بالمغايرة الكلية، وبالتعدد. سؤال الهوية تفرضه الحاجة للمقارنة بين فكرتين وعالمين "[15].

طالما أن الثقافة هي ما يضيفه الإنسان للطبيعة باعتبارها المادة الخام، المشتركة بين جميع البشر حاملة لخصوصيته في بيئة ما؛ وبما أنها نمط حياة- ثقافة- وجب التعامل بعفوية الثقافة الطبيعية الأولو: "غني عن البيان أن مثل هذا التفاعل بين الثقافات العالمية ينبغي أن يؤدي في النهاية إلى تقارب عملي قوامه وضع مجموعة من الثوابت العالمية الثقافية التي نبغي أن تعمل الثقافات جميعها على احترامها وتعميق جذورها. وتوليد مثل هذه الثوابت وقبولها أمر ممكن إذا هو تم عن طريق الحوار الحقيقي، وحل محل فرض ثوابت ثقافة معينة أو بلد معين على العالم كله، والادعاء بأنها هي وحدها الثوابت العالمية"[16]، وبما أن عولمة الثقافة هي تجاوز للخصوصية والانفتاح على الآخر بما يحمله من قيم سياسية واجتماعية وثقافية مهيمنة متمركزة ليصير العالم واحدا؛ لأن الثقافة في مجملها هي: محاولة مجتمع ما تعميم نموذجه الثقافي على المجتمعات بوسائل سياسية، واقتصادية، وثقافية، وتقنية متعددة"[17].

كما أن إدماج الثقافات أو الانفتاح إلى الكونية يؤدي إلى: "العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلدا بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات على بلدان العالم أجمع، وهي أيضاً أيديولوجياً تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته. أي محاولة الولايات المتحدة إعادة تشكيل العالم وفق مصالحها الاقتصادية والسياسية، ويتركز أساسا على عمليتي تحليل وتركيب للكيانات السياسية العالمية، وإعادة صياغته سياسيا واقتصاديا وثقافيا وبشريا، وبالطريقة التي تستجيب للمصالح الاستراتيجية

للولايات المتحدة الأمريكية"[18]، فالتعدد الداخلي لمكونات الحكاية وانفتاحها على فضاءات ثقافية، ينقل الرواية من كونها مدونة نصية شبه مغلقة؛ إلى خطاب تعددي منشبك بالمؤثرات الثقافية الحاضنة له. ومن هنا انخرطت أعمال الطيب صالح في الجدل الخاص بالهويات الثقافية والحضارية، الأمر الذي أفضى إلى ظهور عوالم متعددة بقيمها، وتصوراتها، ومواقفها. وبذلك قامت أعماله الروائية بتمثيل ثنائيات: الأنا والآخر، وكل ذلك أسهم في إثراء البنية الدلالية وتعدد مستوياتها.

يقوم السرد في عالم الطيب صالح الكتابي الإبداعي بمهمة تثير التوتر الثقافي بين الشرق والغرب، بأسلوب رمزي، يعيد إلى المتلقي التعارض بين قطبين حضاريين، وينخرط في تمثيل مجازي لهذا التناقض من خلال استحداث الشخصيات، ورؤى تنتمي إلى طرفي التناقض المذكور.

وللحديث أكثر" كانت فيه الثقافة العربية الاسلامية تعيش حركة مد حضاري يؤدي في الغالب الأعم إلى تقوية التمركز على الذات، وتنمية الشعور بأن ما لديها هو المرجع الأوحد والعيار الذي تقوم على أساسه بقية الثقافات، وتسبك المواقف منها بحيث تؤدي في الغالب الأعم إلى الاستغراب والرفض والاستبداد وربما السخرية. وليس من السهل في تلك الظروف، وحتى هذه الظروف المحيطة بنا اليوم، أن نستضيف الآخر على ما هو عليه وأن نتجرد عن الأصول التي انبنت عليها ثقافتنا، والشعر في طليعة تلك الأصول إذ تعودنا أن نرى الآخر يستدعي لتلميع الذات وتثبيت الهوية وتضخيم الأنا، وما ينجر عن ذلك التضخم من ضروب الاستعلاء والاستهجان"[19]

نرجع عند " **يونغ**" الذي يرى بأن الذات والأنا " مركبيّن مستقلين بل يزيد الهوّة لتصبح المسافة بينهما والتي تفصلهما هي ذاتها بين الشمس والأرض"[20]، ويقصد بذلك أنّه لا يمكن الخلط بينهما وأنّ" الذات كيان يفوق "الأنا" تنظيما، إذ تحتضن "الذات" النفس الواعية والنفس الجماعية وتشكل بذلك شخصية أوسع وتلك الشخصية هي نحن"[21]، وذلك أنّ "**الذات**" أوسع من "**الأنا**" لاحتضانها أكثر من ذات.

وما نستنتجه أنّ "**الذات**" بالإضافة إلى أنّها تشمل الأنا الفردية، تشمل أيضاً على الأنا الجماعية وبذلك يكون للآخر دور في تشكّل هذا الذات. فقد" ظهرت "**الأنا**" تلبيّة لحاجة النفس البشرية للتوازن النفسي والاجتماعي الذي يستدعيه مبدأ الواقع والعقل"[22] . فهو الذي يشرف على" الحركة الإرادية ويقوم بعملية حفظ الذات وهو يقبض على زمام الرغبات الغريزية التي تنبعث عن الهو فيسمح بإشباع ما يشاء منها، ويكبت ما يرى ضرورة كبته مراعيا في ذلك " مبدأ الواقع(reality principle) ويمثل

الأنا الحكمة وسلامة العقل على خلاف الهو الذي يحوي الانفعالات وتقع العمليات النفسية الشعورية على سطح الأنا، وكل شيء آخر في الأنا فهو لا شعوري"[23]

فلا ذات بدون آخر، ولا آخر بدون ذات،" فالذات فيه تبع للآخر وهي، لا يمكن أن تنتزع شرعيتها المعرفية إلا بوساطة إعادة إنتاجها بمنظور الآخر، بل لا سبيل إلى رؤية الذات إلا بمنظور الآخر ومن ثم فإنها ستتلون بألوان ذلك المنظور، وصار المعيار الغربي بمعطياته المنهجية هو الذي يحدد موقع الذات ودرجة الأهمية وهي صفة تلازم التأثر السلبي ولا تليق بالمثاقفة الإيجابية"[24]

جعل " فرويد " الأنا كحالة وسطية بين الهو والأنا الأعلى، لتشكيل حلقة اتصال بين العالم الخارجي والحاجات الغريزية، فالأنا حسب قوله" يقوم بنقل تأثير العالم الخارجي إلى الهو وما فيه من نزعات، ويحاول أن يضع مبدأ الواقع محل اللذة الذي يسيطر على الهو"[25]

أمّا في الفلسفة المعاصرة، فقد شاع هذا المصطلح كثيراً خاصةً عند الفلاسفة الفرنسيين أمثال: جان بول سارتر، ميشال فوكو، جان لاكان، إيمانويل ليفيناس وغيرهم" ولعلّ سمة الآخر المائزة هي تجسيده ليس فقط كلّ ما هو غريب (غير مألوف) أو ما هو (غيري) بالنسبة للذات أو الثقافة ككلّ، بل أيضاً: كلّ ما يهدّد الوحدة والصفاء، وبهذه الخصائص امتدّ مفهوم الغيرية (**alteritée**) هذا إلى فضاءات مختلفة تمثّل التحليل النفسي والفلسفة الوجودية والظاهراتية"[26].

أمّا مفهوم "الآخر" عند " ميشال فوكو" فمتعلق بالذات تعلقاً لا فكاك منه شأنه في ذلك شأن ارتباط الحياة بالموت، " فالآخر" بالنسبة إلى " فوكو " هو "الهاوية" أو الفضاء المحدود الذي يتشكل فيه الخطاب"[27]، ونقصد بذلك أنّ " الآخر" بالنسبة له هو الموت بالنسبة إلى الجسد الإنساني" إنّ الآخر عند فوكو هو لا المفكّر فيه في الفكر نفسه، أو هو الهامشي الذي سيبعده المركز، أو هو الماضي الذي يقصيه الحاضر، لكنّه أيضاً جوهري بالنسبة لكينونة الخطاب الذي يستبعده، فنحن لا نعرف الحاضر دون الماضي ولا نعرف الذات دون الآخر، أمّا على مستوى الخطاب، فالآخر هو معالم الانقطاع والفصل الذي يحاول التاريخ استبعادها ليؤكد استمراريته"[28].

صورة "الأنا" و"الآخر" ضمن العلاقة: مستعمِر/ مستعمَر:

يقتضي الحديث عن "**الأنا**" و"**الآخر**" محاولة اكتشاف العلاقة التي تربطهما سواء كانت: سياسية، إجتماعية أم ثقافية... إلخ، التي وجدنا أنّها لا تخرج عن دائرة الصراع الدائم، فالصراع القائم بين هذين الطرفين (الأنا والأخر) صراع طويل يدخل ضمن العلاقات الإنسانية المعقّدة التي جمعت بينهما أثناء فترة

حرجة من تاريخ الجزائر، وهذا ما لمسناه في مسار بحثنا، فالتقاء "الأنا" "بالآخر" سردياً ضمن المتن الروائي الجزائري المكتوب بالفرنسية جعلهما لا يخرجان عن إطار علاقة المستعمِر بالمستعمَر.

إنّ المتأمّل لمضامين معظم الروايات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية التي تناولت " الآخر" الفرنسي، يلاحظ مدى تركيزها على الصراع بين " الأنا " المستعمَر و" الآخر" المستعمِر وهي حقيقة تاريخية أوجدها ذلك الاحتقان العدائي للآخر الفرنسي، بسبب تسلطه وهمجيته[29].

من هنا نلاحظ أنّ " الأنا " الجزائري اكتسى صورة " المستعمَر "، و" الآخر " الفرنسي تجسّد في صفة " المستعمِر"، وهذا نظرا للعلاقة التي تربطهما فهي علاقة استعمارية، فجلّ الأعمال الروائية توظّف " الآخر" الفرنسي، باعتباره العدّو الكولونيالي" فهؤلاء الروائيين قد عاشوا حياة الشعب الجزائري القاسية في ظلّ الاستغلال الاستعماري، لقد خلقهم الشعب الجزائري أو بالأحرى أنّهم الشعب الجزائري"[30]، ومن ثمّ فالرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية" تعرض لنا صوّر مختلف النّاس بمختلف اتجاهاتهم الإجتماعية، وهي تمزّق الأقنعة عن وجوده أولئك الذين يمثّلون الطبقات المستغلّة، كما أنّها تكشف بذلك عن وجوه الأبطال الإيجابيين المناضلين"[31].

فقد عبّر "ياسمينة خضرة" في روايته " فضل الليل على النهار " عن الفقر الشديد الذي كان يعانيه معظم الجزائريين وخاصة شخصية البطل والد يونس، إنّها قصة تدور أحداثها في ضواحي مدينة وهران التي تجسّدها مجموعة من العائلات الجزائرية في واد المالحة، فالمتقصي للأحداث المتصارعة بين قطبي المركز والهامش يتجلى من خلال"بحثت عنه في المطابخ الشعبية والمقاهي والحمامات العربية ...بلا جدوى [32]، فالحقل الدلالي "المقاهي الشعبية، الحمامات العربية" تعبّر لنا عن سياسة التجويع التي مارسها " الآخر " المستعمِر ضد الجزائري المستعمَر فهي ترسم لنا حالة الفقر الشديد الذي أرهق الجزائريين.

نستخلص ممّا قدمناه عن ياسمينة خضرة، أنّها قد مثلت لنا نماذج مختلفة من طبقات الشعب الجزائري لتعبر عن الصورة التي تركها " الآخر" المستعمِر في نفوس الجزائريين من قهرٍ وظلم.

في حين ركّز ياسمينة خضرة على الجوانب السياسية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، فقد رسم لنا الروائي، صورة معاناة وكفاح شعب حاول الإستعمار تجويعه وتفقيره ونهب حريّته،" لا تضع قدميك هنا أيها المقمل هذا ليس مكانا لأمثالك، دخل النادل إلى الحانة وخرج منها بعد لحظات وفي يده نعل ...خذ نعلك يا جحا البئيس، ستجرى بها أحسن، وأسرع إلى خسارتك"[33]، فقد حاول الروائي الإهتمام بنقل صورة "**الآخر**" الفرنسي العدوّ والظالم وممارسته التي تضمّنت إرهاب المواطنين وتعذيبهم

ومحاولة إقصائهم كما أنّ الروائي قد صوّر أيضاً الفقر والبؤس والألم الذي عاش فيه الجزائري في ظلّ الاستعمار" وبعد ذلك، سقط على ركبته، انبطح على بطنه ثم وتحت أعيننا المذهلة، ترك نفسه يقوم بشيء لا يفعله رجل أبدا أمام الملأ، انفجر بالبكاء ... ذرف جميع دموع جسمه"[34].

لقد كشفت هذه الأعمال الروائية حالة البؤس الاجتماعي التي وصل إليها الشعب الجزائري، لا سيما في فترة الحرب الكبرى، التي طحنت معظم فئات الشعب ووصلت بهم إلى حافة الكارثة من الناحيّة الاقتصاديّة، كما عبّرت عن وعي جديد، ونفس غير معهود في الكتابة يصوّر الفلاحين والحرفيين في القرى والأرياف في المدن ويعبّر عن صراعهم اليومي مع صعوبة العيش وظلم "**الآخر** " المتجسد في السلطات واستغلال المستوطنين لجهدهم[35]." البطالون الذين لا يختلفون كثيرا عنها، يشبهون الفزازيع المهملة، المتروكة هنا إلى أن تبعثرها الزوابع في الطبيعة" [36]

وبناء على ما سبق نلخص في الأخير إلى أنّ هذه الروايات هي بمثابة مرآة تعكس الصورة الحقيقية " للآخر " الفرنسي بالنسبة " للأنا " الجزائري من منظور تاريخي على الأقل، كما أنّها تصوّر الأوضاع المزرية التي آل إليها الشعب الجزائري، التي استند إليها الروائيون في نقل صورة عن العلاقة بين " الأنا " الجزائري و" الآخر " الفرنسي، لم تخرج عن إطار ثنائية (المستعمِر / المستعمَر) في معظم الأعمال الروائية التي تناولت الثورة التحريريّة.

خاتمة:

وإن كان لابد لنا من كلمة في الاخير وجب توفر إرادة سياسية واجتماعية وثقافية لجميع مؤسسات الدولة وتجاوز منطق الانغلاق والتقوقع لردم الهوة بيننا وبين الآخر، لهذا لا مناص من الانفتاح مع العالم والاحتفاظ بالخصوصية والاخذ بالبعد الانساني؛ لا شدة الانتماء والعنصرية المقيتة, فلا وجود لأنا مطلقة بحكم الطفرة الوراثية علميا وتحديات التكنولوجيا التي تتحكم بتغير اللون واللغة والدين، ولا آخر مطلق بحكم التثاقف والتمازج والأثنية والهجنة والغاء كل الحدود.

هوامش:

[1] بول ريكور: الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص.70.

[2] دريس، زياد بن عبد الله: مكانة السلطات الأبوية في عصر العولمة، دار AIRP، الرياض, 2009، ص 56.

[3] خباز محمد: صورة الآخر في شعر المتنبي، نقد ثقافي؛ يليه مرايا المتنبي، وجه شعري لكائن فلسفي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،2009، ص261.

[4] ينظر: رزان محمود إبراهيم: المؤثر الاستعماري في الكتابة الأدبية إيقاعات متعاكسة تفكيكية، د ط، جامعة البترا الخاصة، قسم اللغة العربية وآدابها، د ت، ص 24.23.

[5] ياسمينة خضرا: فضل الليل على النهار، تر : محمد ساري، وزارة الثقافة، الجزائر،ص107.

[6] المرجع نفسه: ص56.

[7] المرجع نفسه: ص9.

[8] دعاء أحمد البنا: دراما المخابرات.. وقضايا الهوية الوطنية، ط1، العربي للنشر والتوزيع،2019، مصر، ص 67/66.

[9] ينظر: نسرين عبد العزيز، ثقافة السلام، الدراما وثقافة اللاعنف، المنهل، 2016، ص49.

[10] ياسمينة خضرا: فضل الليل على النهار، ص13.

[11] المرجع نفسه: ص85.

[12] المرجع نفسه: ص08.

[13] المرجع نفسه: ص91.

[14] ينظر: محمد سمير عبد السلام: جماليات التناقض، قراءات نقدية في الأدب والثقافة، دار التيسير للطباعة والنشر،2015، مصر، ص:52.

15 إبراهيم، عبد الله: موسوعة السرد العربي، ج 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008، الأردن، ص 141.

[16] عبد الله عبد الدائم: العرب والعالم بين صدام الثقافات وحوار الثقافات، مجلة المستقبل العربي، ع 203، 1996 ص26.

[17] عبد الله أحمد أبو راشد: العولمة والنظام العالمي والشرق أوسطية، دار الحوار للنشر والتوزيع، 1999، ص10.

[18] ينظر: محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، دار المستقبل العربي، بيروت، عدد 228، 1998، ص 137.

[19] نور الهدى باديس: دراسات في الخطاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008 بيروت.

[20] كارل غوستاف يونغ، جدلية الأنا واللاوعي، تر: نبيل محسن، دار الحوار، ط1، اللاذقية- سوريا، 1997، ص58.

[21] المرجع نفسه: ص94.

[22] سهاد توفيق الرياحي: ظاهرة الأنا في شعر المتنبي وأبي العلاء (دراسة دوازنة نقدية)، دار الزمان، ط1، عمان 2012، ص15،16.

[23] سيجموند فرويد: الأنا والهو، ترجمة محمد عثمان نجاتي، ط 4، دار الشروق، 1402 هـ/ 1982 م، ص 17.16.

[24] عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، بحث غي نقد المركزيات الثقافية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2004، ص529.

[25] سيجموند فرويد: الأنا والهو، ترجمة محمد عثمان نجاتي، ط 4، دار الشروق، 1402 هـ/ 1982 م، ص 43.42.

[26] ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر تسعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط5، بيروت- لبنان، 2007، ص21.

[27] المرجع نفسه: ص22.

[28] المرجع نفسه: ص22.

[29] وزداني بوداود: تجليات ثورة التحرير الجزائرية في الرواية الجزائرية، www.ahmothaqf.com/th.، 08 مارس 2017.

[30] سعاد محمّد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، (د ط)، بيروت – لبنان، 1967 ص129.

[31] المرجع نفسه: ص146.

[32] ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص116.

[33] المرجع نفسه: ص67.

[34] المرجع نفسه: ص8.

[35] أحمد منور، الأدب الجزائري باللّسان الفرنسي نشأته وتطوّره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، 2007، ص268.

[36] ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، ص9.